أسطورة المسادا

نحمان بن يهودا

مقدمة : اللغز

كيف نفسر ، بواسطة علم الاجتماع ، منظومة معتقدات هامة اتضح أنها قائمة على سلسلة من الغش والمزاعم المغرضة (والمزيفة أيضا) ؟ وكيف يتصرف الإنسان ، إذا اتضح أن منظومة المعتقدات هذه لا تشكل حجر بناء بالغ الأهمية لتطوير عقول الشباب وحسب ، بل تشكل حجر الأساس لشعب برمته ؟

ما يدعى بالرواية الأسطورية للمسادا يعتبر إحدى تلك المنظومات : إدعاء أخلاقوي زائف ، باغتني بصورة فظيعة في عام ١٩٨٧ اكتشاف مدى ما ينطوي عليه من زيف . ورغم أن التفسير السوسيولوجي المطروح في هذا الكتاب يعتمد على تجربة إسرائيلية ، من الخطأ الشديد افتراض أن منظومة معتقدات ميثولوجية وشاذة كهذه تعتبر حكرا ثقافيا يسم إسرائيل وحدها ، فالأساطير والمعتقدات الشاذة تسم العديد من الثقافات . لذلك ، يتسم الدرس السوسيولوجي المستمد من هذه الحالة الخاصة بملابسات بعيدة المدى . الجانب الشخصي

للقصة بداية مثيرة وغير مقصودة . ففي عام ١٩٨٧ انهمكت في مشروع بحثي طويل المدى حول الاغتيالات السياسية التي اقترفها اليهود في فلسطين وإسرائيل . وازداد اهتمامي ، في سياق البحث ، بمسألة وجود جماعات يهودية دعت إلى ـ أو مارست ـ الاغتيالات السياسية .

وفي أحد أيام الجمعة كنت منهمكا في قراءة ورقة مدهشة لدافيد رابوبورت يقارن فيها بين ثلاث من الجماعات التي اتبعت أسلوب الاغتيال : قطّاع الطرق في الهند ، فرقة الحشاشين

STUDENTS-HUB.com

الإسلامية، وجماعة المتعصبين اليهود (سيكاري) . كان السيكاري جماعة يهودية ازدهرت في زمن ما أصبح يُعرف ءبالثورة الكبرى » اليهودية ضد الرومان (٦٦ـ٧٣ بعد الميلاد) . دعت تلك الجماعة إلى ممارسة الإرهاب والاغتيالات، وطبقت دعوتها على الأرض . وربما كانت الفرقة اليهودية الوحيدة المعروفة حتى عام ١٩٤٠ ، التي عبّرت عن التزام أيديولوجي بهذا القدر من الوضوح، وحوّلته إلى ممارسة .

لا يحتاج الإنسان إلى كثير من الجهد ليرى السيكاري ء كعصابة من القتلة » . ولكن يمكن تخيّل دهشتي، وامتعاضي في الواقع، من قول رابوبورت إن ء عصابة القتلة » هلكت في أعلى المسّادا . أذكر بوضوح كيف قرأت تلك العبارة وفكرت في ارتياب : ء أميركي آخر يحاول أن يروي لي، أنا الإسرائيلي، ما جرى في أعلى المسادا » .

أنا ءأعرف » ما جرى هناك . تعلمت في المدرسة، وفي الجيش ـ تسلقت إلى أعلى المسادا أثناء خدمتي ـ عرفت عن جماعة من المناضلين اليهود الفارين من القدس، بعد تدميرها على يد الجيش الإمبراطوري الروماني عام ٧٠ للميلاد، إلى المسادا . هناك، خاض المناضلون معركتهم الأخيرة ضد ذلك الجيش، وعندما أوشك الرومان على احتلال القلعة، اختار المناضلون اليهود الأبطال الانتحار الجماعي بدلا من الاستسلام أمام الرومان، والتحوّل إلى عبيد، أو الموت ميتة فظيعة وغريبة (في حلبة المصارعة، مثلا) . فكيف يُقال أن المناضلين اليهود كانوا في الواقع جماعة من القتلة المنفرين ؟

ورغم ذلك، شعرت بحكم اختصاصي في علم الاجتماع بضرورة فهم الطريقة التي أوصلت رابوبورت إلى هذا الخطأ الواضح . فحصت قائمة مصادره، فوجدت أن يوسيفوس فلافيوس كان مرجعه الأساسي . وفلافيوس يعتبر المصدر التاريخي الأساسي حول تلك الفترة .

وبما أن أيام الجمعة من أيام العمل القصيرة في إسرائيل، سارعت بالذهاب إلى المكتبة قبيل إغلاقها في عطلة نهاية الإسبوع . وتمكنت من الحصول على النسختين العبرية والإنكليزية لتاريخ يوسيفوس فلافيوس . عدت إلى مكتبي وقد اختمرت في ذهني صيغة رسالة إلى رابوبورت احتجاجا على ما ارتكبه من خطأ . وبما أن الجامعة العبرية تغلق أبوابها في وقت الظهر، حملت النسختين العبرية والإنكليزية معي إلى البيت . وأنفقت عطلة نهاية الاسبوع في جهد محموم لقراءة المقاطع ذات الصلة في الكتابين . وإذا أردت إيجاز تلك القصة الطويلة، ونهاية أسبوع مؤلمة، يكفي القول أنني اكتشفت ليلة السبت أن رابوبورت كان على حق، بينما كنت على ضلال .

لم تكن تلك نتيجة مريحة من ناحية عاطفية، وإذا أردت التعبير عن الأمر بلهجة ملطفة، فلنقل أنني شعرت بالخديعة والاستغلال . حاولت في ذهني إعادة بناء الطريقة التي ء حصلت فيها على معلومات » عن المسّادا في سنوات تكويني وانخراطي في المجتمع الإسرائيلي . حصلت على ء معرفة» لم تكن خاطئة وحسب، بل كانت شديدة التحيّز أيضا . وهذا ما يستحق التأمل، لم تكن المسّادا مجرد حكاية تروى، بل زوّدت هويّة جيلي من اليهود الإسرائيليين،

STUDENTS-HUB.com

بعنصر هام من عناصر تعريف هوّيتنا اليهودية والإسرائيلية . ولكن ، ماذا أفعل بعدما اكتشفت أن عنصرا رئيسيا من عناصر هوّيتي يقوم على الزيف والتحريف .

الجانب المهني

ما أن هدأت مشاعر الغضب والامتعاض ، حتى قمت بما ينبغي لباحث في العلوم الاجتماعية القيام به : قررت دراسة الطريقة التي تمت بها أسطرة المسّادا ، ولا شك أن دافعي كان مهنيا في المقام الأوّل ، ورغم ذلك اتسم الجهد بدوافع شخصية قوية . أولا ، قد تزودنا دراسة الرواية الأسطورية للمسّادا بمفتاح لفهم كيف تظهر أسطورة معيّنة في الواقع ، لماذا تُخلق ، من قام بذلك ، ما هي الظروف التي تنشأ فيها ، كيف يجري بثها بين الناس ، كيف يجري تعطيل الشك الطبيعي لدى الناس في قصص خيالية كهذه ، وكيف يتم الحفاظ على ديمومتها ؟ . . الخ .

ثانيا ، أثارت ردة الفعل الطبيعية التي تملكتني مشاعر الحيرة في نفسي . لماذا شعرت بهذا القدر من الغضب ؟ فقد شعرت بهذا النوع من الغضب المرة تلو الأخرى ـ كما يظهر في الفصول التالية ـ كلما جابهت إسرائيليين آخرين بالرواية الحقيقية للمسّادا (أي رواية يوسيفوس فلافيوس) . كان لهذا الغضب درسه الخفي الهام ، فردة الفعل الغاضبة تشير بالطبع إلى الضرب على وتر حساس عند مجابهة اليهود الإسرائيليين بالتناقض بين الرواية الأسطورية للمسادا ، والرواية الأصلية غير الأسطورية . كما أن مشاعر الغضب تزوّدنا بمؤشر جيد حول طبيعة الموقف الاجتماعي القوي من رمز معيّن . لهذا السبب ، لا ننظر إلى العاطفة الخاصة في هذا السياق كقوة دفع وحسب ، بل كمؤشر على طبيعة العلاقات الاجتماعية ، أيضا .

كنت مهتما في السابق بالطريقة التي تصاغ بها منظومات المعتقدات المُحرّفة ، والطريقة التي تشتغل بها (صيد الساحرات في أوروبا والعلماء والعلوم المُحرّفة ، مثلا [١٩٨٥] سياسة التحريف [١٩٩٠] الاغتيالات السياسية ومبرراتها [١٩٩٣] الذعر الأخلاقي [غوود وبن يهودا ١٩٩٤] . علاوة على ذلك ، وجدت نفسي بعد تبلور اهتماماتي المهنية منخرطا بشكل مضطرد في التواريخ الطبيعية ، وبشكل مضطرد ، أيضا ، في المنظور النظري لبناء الأفكار . إن أسطورة المسّادا تمثيل ممتاز لعملية من عمليات البناء الاجتماعي ، لذلك بدا التنقيب فيها ، من منظور التاريخ الطبيعي ، كتوسيع طبيعي لعملي في هذا المجال .

وهكذا ، بدأت رحلة مدهشة في الماضي ، بدأت دراسة في ء أركيولوجيا المعرفة » حسب تعبير فوكو . أما الوقت الطويل الذي استغرقه البحث فيرجع إلى عدة عوامل . فقد أوقفت البحث لفترة طويلة بعد مقابلة مؤلمة ومؤثرة جدا في عام ١٩٨٧ مع شماريا غوتمن ، أحد الرجال الذين صاغوا الأسطورة .

وقد بيّن لي هذا البحث أن السجال الأساسي ، الثقافي والفكري والسياسي ، في إسرائيل لا يدور حول مستقبل البلد أو حاضره ، بل حول تفسير وبناء ما يُرى كماض له ، وما قد تتركه صياغات معينة من أثر على الحاضر والمستقبل . واكتشفت خلال البحث ، أيضا ، بضع حقائق مدهشة منها أن الاعتراض على تحويل المسادا إلى أسطورة جرى من قبل ، وبكثير من الضجيج

STUDENTS-HUB.com

في بعض الأحيان، ولكن دون فائدة تذكر. كما لاحظت كيف جرى تحويل المسّادا من رمز لأيديولوجيا قومية مركزية إلى معلم من المعالم السياحية التي تستخدم الأسطورة لتحقيق منافع اقتصادية رخيصة. ومع ذلك، علينا أن نرى في تحويل رمز المسّادا إشارة واضحة إلى عملية تغيير رئيسية وقعت في المجتمع الإسرائيلي.

الأسطورة

استخدمت كلمة الأسطورة حتى الآن بطريقة غير محددة المعالم. لذلك، ينبغي توضيح بعض المسائل الأولية حول مفهوم الأسطورة. سأعود إلى المفهوم بطريقة أكثر عمقا في الفصل الثالث عشر، حيث أقوم بتحليل المعطيات المتجمعة في سياق البحث على خلفية مفهوم الأسطورة. علاوة على ذلك، ينبغي القول أن عبارة «أسطورة المسّادا» شائعة جدا في الطريقة التي يتكلم بها عديد من الإسرائيليين عن المسّادا.

«الأساطير» كيانات يفترض أن تكون مألوفة لدينا. ولكن، هل هي مألوفة فعلا؟ ما هي الميثولوجيا بالضبط؟ ما هي الأسطورة؟

بمعزل عن التعريفات الكثيرة والمتنوعة للأسطورة وعلم الأساطير، تشترك الأساطير في خاصية مشتركة، إذ يبدو أن استخدام كلمة أسطورة ينطوي على شئ ليس صادقا بدرجة كافية، على شئ تكون علاقته بالحقيقة أو الواقع الموضوعي إشكالية في أفضل الأحوال. لذلك، ثمة ما يوحي بوجود كذبة ما، وربما ينم استخدام الكلمة عن محاولة للتلاعب. في السيرة الأسطورية نوع من الانزياح عما تقبله الغالبية العظمى من الناس باعتباره «الحقيقة».

ومع ذلك، يخلق استخدام الأساطير واقعا جديدا: يخلق واقعا تلعب فيه الأسطورة دور المرشد الهادي للسلوك اليومي ـ تكون منارة لتحقيق الذات، إذا شئت. توجد الأساطير في كل الثقافات. وقد لعبت دورا حاسما في عمليات بناء أساسية عرفتها بعض الأمم، وكذلك في العوالم الرمزية القوية لثقافات مختلفة. ورغم انزياح الأساطير عن الواقع، ربما يفكر الناس في هذا الانزياح كمسألة إيجابية. لذلك، تعتبر دراسة دور الأساطير في العمليات الثقافية تحديا يستحق العناء بالنسبة للمشتغلين في علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا على حد سواء.

يوسيفوس فلافيوس والرواية الأسطورية للمسّادا

ما هي الرواية الأسطورية للمسّادا؟

علينا التنقيب بالتفصيل في الأسطورة والواقع في بقية هذا الكتاب، ولكن من الضروري أن نبيّن هنا، ولو على سبيل الإيجاز، جوهر التناقض بين الواقع والأسطورة لنتمكن من تحقيق معرفة أفضل لمعناه (أي التناقض). إن الأساس الوحيد لتحديد ما إذا كانت الرواية الأسطورية للمسّادا أسطورية فعلا يتمثل في مقارنة ما نعتقد بأننا نعرفه عن المسّادا مع مرجعها التاريخي الوحيد، أي ما كتبه يوسيفوس فلافيوس. فلن نعرف شيئا عن المسّادا دون الرجوع إلى هذا

STUDENTS-HUB.com

المرجع .

يوسيفوس فلافيوس

رغم أنني سأتعرّض ليوسيفوس بالتفصيل في الفصل الثاني ، إلا أن ما يخبرنا به يمكن ايجازه على النحو التالي : تمرّد اليهود في زمن الهيكل اليهودي الثاني على الغزو الروماني لمملكة إسرائيل . وبما أن أقلية من الناس بادرت إلى إعلان التمرّد ، كان الفشل مصيرا حتميا لتمرد اليهود على الإمبراطورية الرومانية . وما عُرف في وقت لاحق باسم الثورة الكبرى كان في الواقع فشلا عسكريا وسياسيا ذريعا لليهود ، أدى إلى كارثة وتسبب في تدمير الهيكل الثاني ، وكانت المسّادا هي آخر بقايا ذلك التمرّد الفاشل .

عرف اليهود في زمن التمرّد العديد من الجماعات السياسية ـ الأيديولوجية ، وعُرفت بينها جماعتان هما الزيلوت والسيكاري . كانت السمة المميزة لجماعة السيكاري استخدام أسلوب الاغتيال السياسي ضد الرومان واليهود على حد سواء . وقد طُرد هؤلاء خارج القدس على يد اليهود ، وليس الرومان ، قبل حصار الجيش الروماني للمدينة وتدميرها بوقت طويل .

هرب السيكاري إلى المسّادا . بهذا المعنى كانت الجماعة القاطنة في أعلى المسّادا طائفة من القتلة ، ولم تكن طائفة من الزيلوت . وخلال مكوثهم في المسّادا هاجم السيكاري القرى القريبة (اليهودية) قتلوا سكانها ، ونقلوا مؤنها إلى المسادا . كانوا مسؤولين عن مذبحة مروعة قيل أنها ضد نساء وأطفال أبرياء في عين جدي .

جرى تدمير القدس عام ٧٠ للميلاد ، لكن حصار المسادا في عام ٧٣ للميلاد استغرق ما بين ثمانية وأربعة أشهر . وبالتالي لم تجر معارك لمدة ثلاث سنوات . ولم تجر في الواقع ، كما يقول يوسيفوس فلافيوس معارك حول المسّادا ، ما عدا فرض الحصار ، واليوم السابق للانتحار الجماعي . وبالتالي ، رغم الوصف التقليدي الصاخب لمعركة ضارية ، لا توجد دلالة على وقوع معركة بين اليهود والرومان خلال الحصار القصير . وهناك في الواقع ما يدل على عدم رغبة السيكاري في محاربة الرومان . ومن الواضح أن السيكاري في المسّادا لم يكونوا مقتنعين بضرورة قتل أنفسهم ، لذلك بّذلت جهود مكثفة لاقناعهم بضرورة قتل بعضهم البعض ـ وقتل غير المحاربين من الأطفال والنساء في المسّادا ـ بدلا من الوقوع في الأسر ، علاوة على ذلك ، لم يُقتل جميع السكاري وعددهم ٩٦٧ في المسّادا ، بل بقي سبعة منهم على قيد الحياة .

ليس من الصعب ملاحظة أن الرواية الأصلية ليوسيفوس لا تنطوي على دلالة البطولة ، ومن الواضح أن الرواية الأسطورية للمسّادا ، وهي رواية بطولية ، كانت نتيجة صياغة لاحقة . كانت ثمة ضرورة لخلق البطولة في أسطورة المسّادا . وهذا ما لا يجد السند لدى يوسيفوس .

الرواية الأسطورية للمسّادا

سيجري عرض المعنى والنطاق الكامل لهذه الأسطورة في القسم الثالث من هذا الكتاب ، بعد فحص التفاصيل حسب تجلياتها المختلفة في القسم الثاني . تستهدف طريقة العرض هذه

STUDENTS-HUB.com

التوصل إلى فهم وتقييم أفضل للأسطورة. ورغم أن عرض الأسطورة في هذا الفصل يعتبر سابقا لأوانه، من غير المفيد مواصلة العرض دون نقاش الأسطورة ـ ولو بصورة مختصرة ـ حتى ندرك طبيعة ما نناقشه في الواقع.

يصف معظم الإسرائيليين المسّادا باعتبارها قلعة على جبل بعيد قرب البحر الميت. ويمكن أن يعلنوا بعد هذا الوصف أن جماعة صغيرة في هذا المكان، من المحاربين اليهود (أو المناضلين، أو الزيلوت، وهذا شائع أكثر) حاربت حتى النفس الأخير في ظروف صعبة للغاية أمام جيش روماني يفوقها عددا وعدة. وعندما لم ير الزيلوت بصيص أمل، انتحروا بصورة جماعية تفاديا للوقوع في أسر الرومان.

وقد ملت بعد سماع هذه الرواية النمطية إلى طرح عدد من الأسئلة المحددة. ففي البداية استفسر ما إذا كانت تلك الجماعة من اليهود تتسم بسمة خاصة، وغالبا ما تكون الإجابة بالنفي. وبعدها يأتي السؤال عن عدد المنتحرين في أعلى المسّادا. وهنا تتفاوت الأرقام، لكن الاجابة النمطية تضع عدد المحاربين اليهود ما بين ٢٥٠ و٣٥٠ شخصا. أما السؤال الثالث فيتعلق بالظروف الخاصة بتلك العملية، وهنا تفيد معظم الردود أن تمردا يهودا ما وقع ضد الرومان، وأن المحاربين اليهود هربوا من القدس بعد سقوطها وحرقها على يد الرومان. وعند السؤال عن مزيد من التفاصيل المتصلة بطبيعة التمرّد أو تاريخه لا توجد في العادة إجابات.

وبالقدر نفسه، لا يعرف معظم المجيبين عن الأسئلة مدة الحصار الروماني للمسّادا، وقد يفترضون استمراره لفترة طويلة. زار معظم من طرحت عليهم تلك الأسئلة المسّادا، وهم لا يعرفون بشكل عام ما إذا كانت سمة خاصة تميّز المحاربين اليهود، من أين جاءوا (ربما يزعم بعضهم أن المحاربين كانوا من الناجين من حصار الرومان لقدس وتدميرها) كما لا يعرفون المدة الزمنية لحصار المسّادا، وكيف عاش محاربو المسّادا (من حيث الحصول على الطعام، مثلا) أو كيف جرى اتخاذ قرار الانتحار.

ومن الأوصاف النمطية المألوفة ما يلي:

الوصف الأوّل مستمد من شخص اقترن اسمه بالمسّادا بطريقة بالغة الخصوصية، هذا الشخص ييغال يادين. كان يادين في وقت ما أركيولوجيا مرموقا في الجامعة العبرية، وترأس بعثة تنقيب استمرت ١١ شهرا خلال موسمين للحفر في المسّادا، من أكتوبر ١٩٦٣ حتى مايو ١٩٦٤ ومن نوفمبر ١٩٦٤ حتى أبريل ١٩٦٥. وقد كتب يادين أحد أهم الكتب المؤثرة عن المسّادا (١٩٦٦) ونورد هنا ما يقوله عن قصة المسّادا (ص ١١ ـ ١٣):

صخرة المسّادا، على الحافة الشرقية لصحراء اليهودية، التي تهبط بانحدار شديد يزيد عن ١٣٠٠ قدم إلى الشاطي الغربي للبحر الميت، مكان يمتاز بجمال متقشف ومهيب. وهي أيضا مكان أحد أكثر الأحداث درامية في التاريخ اليهودي. كانت فلسطين في القرن الأول للميلاد تحت الاحتلال الروماني، الذي أطاح بمملكة المكابيين اليهودية في أواسط القرن السابق. قام السكان الراغبون في استعادة الحرية والسيادة بثورات متكررة لكنها كانت تقمع بسرعة. أما

STUDENTS-HUB.com

في العام ٦٦ بعد الميلاد، عندما اندلعت الثورة اليهودية لتتحوّل إلى حرب شاملة عمت أرجاء البلد لمدة أربع سنوات، فقد اضطر الرومان لتعزيز قواتهم بالفيلق تلو الآخر للقضاء على المتمردين. احتل القائد الروماني تيطوس في العام ٧٠ ميلادية القدس، فنهب المدينة ودمّر الهيكل، وطرد غالبية الناجين اليهود من البلد.

لكن إحدى القواعد العسكرية الأمامية تمكنت من الصمود حتى العام ٧٣ ميلادية ـ وتلك هي قلعة المسّادا. كان الكاهن الأكبر يونثان أوّل من تولى تحصين هذا الموقع الدفاعي الطبيعي كما يقول مؤرخ القرن الأوّل يوسيفوس فلافيوس، وقد نشب خلاف بين الباحثين حول هويّة يوناثان المقصود بالأمر. ولم ينشأ خلاف حول الرجل الذي حوّل قلعة المسّادا إلى ما أصبحت عليه من قوّة هائلة : الملك هيرود الأكبر.

بنى هيرود بين عامي ٣٦ و٣٠ قبل الميلاد سورا حول القمة، كما بنى أبراجا دفاعية، ومخازن، وخزّانات مياه ضخمة تمتلئ بمياه الأمطار، وثكنات، ومستودعات للأسلحة وقصورا. وتلك هي التحصينات والمباني التي ساعدت آخر جماعة من المحاربين اليهود في كفاحهم ضد الرومان بعد قرابة خمسة وسبعين عاما من وفاة هيرود.

في بداية تمرّد العام ٦٦ للميلاد، تمكنت جماعة من الزيلوت اليهود من تدمير الحامية اليهودية في المسّادا، واعتصمت فيها طيلة الحرب. وقد انضم إليهم ـ بعد سقوط القدس ـ بعض الوطنيين الناجين من العاصمة اليهودية، الذين أفلتوا من الوقوع في الأسر، وشقوا طريقهم الطويل الصعب في صحراء اليهودية، لمواصلة المعركة من أجل الحريّة. اتخذوا من المسّادا قاعدة لعملياتهم الهجومية وشغلوا الرومان لمدة عامين.

لذلك، صمم فلافيوس سيلفا الحاكم الروماني في العام ٧٢ ميلادية سحق موقعهم المقاوم، فزحف إلى المسّادا بالفيلق العاشر تحت قيادته، إلى جانب قوات الاحتياط وآلاف من أسرى الحرب، الذين يحملون الماء والأخشاب والمؤن، على امتداد الهضبة القاحلة. أعد اليهود الذين يقودهم أليعاز بن يائير في أعلى القلعة أنفسهم للدفاع مستفيدين من التحصينات الطبيعية والاصطناعية، كما قننوا استهلاك الماء والمؤن في الخزانات والمستودعات.

أعد رجال سيلفا أنفسهم لحصار طويل، فأقاموا معسكرات قرب قاعدة الصخرة، شيّدوا متاريس حول القلعة، وبنوا في موقع صخري قرب المدخل الغربي للمسّادا هضبة من الطين المجبول والحجارة الضخمة. وضعوا على تلك الهضبة برجا من أبراج الحصار، وتحت غطاء من نيران رموها من البرج تمكنوا من نقل منجنيق إلى البرج ووجهوه ناحية جدار القلعة، وفي نهاية المطاف نجحوا في إحداث ثغرة في الجدار. كانت تلك بداية النهاية.

في تلك الليلة، درس أليعازر بن يائير من موقعة في قمة المسّادا الوضع المشؤوم، فقد أتت النيران على الجدار الدفاعي، وأصبح في مقدور الرومان القضاء عليهم في صبيحة اليوم التالي. لم يكن ثمة أمل بوصول نجدة، ولا بالفرار. وجد نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما : إما الاستسلام أو الموت. وقرر أن « ميتة بطولية أفضل من حياة العار، وأن أفضل قرار يتمثل في

STUDENTS-HUB.com

ازدراء الحياة بعد فقدان الحرية، وكي لا يسقطوا أسرى في يد مهاجميهم، وضع المدافعون ـ ٦٩٠ من الرجال والنساء والأطفال ـ حدا لحياتهم على أيدي بعضهم البعض. وعندما بلغ الرومان القمة في الصباح التالي لم يجدوا سوى الصمت. هكذا يقول يوسيفوس في نهاية وصفه:

على هذا النحو وجدوا [الرومان] العدد الكبير من القتلى، ولم يفرحوا بذلك، رغم أن الموت حل بأعدائهم، ولم يكن في وسعهم سوى التعجب من شجاعتهم وتصميمهم، والاحتقار الأكيد للموت الذي أظهره العديد منهم، عندما قاموا بعمل من هذا النوع.

يقدم كتاب يادين ١٩٦٦ (بالعبرية والإنكليزية) صورة موّسعة أكثر للرواية الأسطورية للمسّادا. وقد نُشر كتابان آخران حول الرواية الأسطورية للمسّادا بهذا القدر او ذاك من التفصيل باللغة الإنكليزية من جانب بيرلمان (١٩٦٧ للقارئ العادي) ويادين وغوتلب (١٩٦٩ للقرّاء الشباب).

علاوة على ذلك، إذا أراد القارئ الرجوع إلى مصادر أخرى متوفرة باللغة الإنكليزية مثل دائرة المعارف اليهودية (منشورات مسادا المجلد ١١ صفحة ١٠٧٨ ـ ١٠٩٢) أو موسوعة الصهيونية وإسرائيل (١٩٧١ منشورات مسادا صفحة ٨٠٩ ـ ٨١١) سيجد فيهما إعادة إنتاج طريفة لرواية المسّادا الأسطورية أيضا.

ثمة مثال أفضل حول الصيغة المؤثرة والكاملة لرواية المسّادا الأسطورية (وإن كان متاحا بدرجة أقل) في المقالة المخادعة التي نشرها لابيد عام ١٩٦٤ في أحد أعداد مجلة التراث اليهودي. ففي تلك المقالة يطلق لابيد على السيكاري، ضمن أمور أخرى، لقب «لوطنيين اليهود» ويقول للقرّاء «على مدار سنوات حاول الرومان اقتحام القلعة، وردوا على أعقابهم في كل مرّة» (ص ٢٩). إذا أطلقنا على ما كتبه لابيد تسمية الرواية الخيالية نثني عليه، لكن «فنتازيا الخيال الجامح» تبدو تسمية أفضل.

نشرت المجلة نفسها معالجة أطول للمسادا عام ١٩٦٧. عكست هذه المعالجة، أيضا، الرواية، الأسطورية للمسادا ولكن بطريقة أكثر ضعفا (هاركر ١٩٦٧)، وفيما أصبح نوعا من التقليد الشعائري أضاف أبرباخ (١٩٦٧) في العدد نفسه مقالة عن يوسيفوس فلافيوس.

نحصل على نموذج آخر في كتيّب صدر عام ١٩٨٥ بعنوان حقائق عن إسرائيل (باللغة الإنكليزية) نشرته دائرة الإعلام في وزارة الخارجية الإسرائيلية. تظهر الفقرة القصيرة التي تصف المسّادا في صفحة ٢٢ بعد صورة للمسادا مأخوذة من الجو في فصل بعنوان «جذور» وهذا الترتيب يعزز أهمية المسّادا. تقترب هذه الصيغة «الرسمية» كثيرا من الرواية الأسطورية للمسّادا، أكثر من «الوصف» الذي اختار يادين كلماته بعناية. والمثير في الاهتمام قيام هيئة رسمية في إسرائيل بذكر المسّادا كجزء من «حقائق عن إسرائيل»، وفيما يلي طريقة تلك الوثيقة الرسمية في وصف المسّادا (ص ٢٢):

مسّادا (٧٠ ـ ٧٣ ق. م)

STUDENTS-HUB.com

رفض حوالي ألف من الرجال والنساء والأطفال اليهود، الذين نجوا بعد سقوط القدس، الاستسلام لروما، استولوا على قلعة الملك هيرود على جبل المسّادا الصخري الشديد الانحدار قرب البحر الميت، واستطاعوا الصمود لمدة ثلاث سنوات في مجابهة محاولات رومانية متكررة لإخراجهم منها، وعندما تمكن الرومان من اختراق القلعة في النهاية، اكتشفوا أن اليهود انتحروا بدلا من الاستسلام أمام العدو.

المثير في الأمثلة التوضيحية المذكورة كيفية صياغتها وعرضها للرواية الأسطورية ـ من خلال حرصها على تجاهل حقائق معيّنة، من بينها طبيعة أولئك «اليهود» في المسّادا. يشير يادين إليهم باعتبارهم من الزيلوت، وتشير وثيقة العام ١٩٨٥ إليهم بحيادية باعتبارهم من اليهود، بينما تختفي كلمة السيكاري، وتغيب مذبحة عين جدي، كما تغيب الطبيعة الارهابية للسيكاري.

تتمكن الروايتان، بدرجات متفاوتة من الخداع من إخفاء حقيقة أن السيكاري وصلوا إلى القلعة قبل استكمال حصار القدس بوقت طويل، كما توحي الروايتان أن الموجودين في أعلى المسّادا كانوا آخر من تبقى من محاربي القدس. يتكرر هذا النموذج المرّة تلو الأخرى، وتوحي إلينا تلك المقاطع بكيفية خلق أسطورة المسّادا.

ولا يصعب علينا اكتشاف أن الرواية الأسطورية للمسّادا تمتاز بعدد كبير من التجليات الخاصة، لكن معظم المرويّات تميل إلى التقاطع حول رواية نمطية ومتعارف عليها هي ما أطلق عليه «الرواية الأسطورية للمسّادا». تتخذ تلك الرواية من حيث الجوهر الشكل التالي: ينتمي قادة الثورة الكبرى إلى جماعة من اليهود يُشار إليها باسم زيلوت. الجيش الإمبراطوري الروماني أخمد الثورة، احتل القدس ودمرها كما دمر الهيكل الثاني.

بعد حصار المدينة وتدميرها، هرب الباقون على قيد الحياة من الزيلوت إلى قلعة المسّادا، وهي موقع حصين في أعلى جبل قرب البحر الميت. وصل الرومان إلى المسّادا، أيضا. طوّقوا القلعة وحاصروها. وقد أدرك العدد القليل من الزيلوت في القلعة، بعد ثلاث سنوات من القتال البطولي ضد الجيش الروماني الضخم، أن لا بارقة أمل تلوح في الأفق، كان أمام خيارين: إما الموت على يد الرومان، أو التحوّل إلى عبيد. لذلك، قرروا قتل أنفسهم والموت ميتة بطولية بدلا من التحوّل إلى عبيد. وعندما دخل الرومان القلعة لم يجدوا سوى الصمت والجثث.

أصبحت المسّادا رمزا بطوليا ل «الوقفة الأخيرة»، كما قال رئيس هيئة الأركان والسياسي الإسرائيلي المعروف موشي دايان:

يمكننا أن نشير اليوم إلى حقيقة واحدة فقط، أصبحت المسّادا في نظر الشعب اليهودي رمزا للبطولة والحرية، أصبحت رمزا يقول لهم: قاتلوا حتى الموت ولا تستسلموا، اختاروا الموت بدلا من العبودية وفقدان الحريّة.

لقد لعبت الرواية الأسطورية للمسّادا دورا حاسما في بلورة الهوية الفردية والجمعية الجديدة

STUDENTS-HUB.com

لأجيال من اليهود الإسرائيليين بين مطلع الأربعينات وأواخر الستينات . من الواضح أن الرواية الأسطورية للمسّادا المنتشرة على نطاق واسع تنطوي على بعض الحقيقة، لكن معلومات معظم الأشخاص الذين سألتهم عن المسّادا تختلف عن معلومات يوسيفوس .

لا شك أن الرواية الشعبية للمسّادا تشكل أسطورة أو معتقدا محرّفا . فهي رواية تعالج سلسلة أحداث طويلة ومعقدة، وغير واضحة المعالم من ناحية تاريخية، لتعمل على اختزالها في صيغة مباشرة، بطولية، وبسيطة تتسم بعدد قليل من الأفكار الواضحة . تركّز هذه الرواية البطولية على فكرة أن جماعة صغيرة من الأبطال الناجين من معركة القدس اختاروا مواصلة القتال ضد الرومان حتى النفس الأخير (الانتحار الجماعي) بدلا من الاستسلام .

لكن الرواية الأسطورية للمسّادا تختلف تمام الاختلاف عن الرواية الحقيقية الوحيدة التي نملكها ـ أي رواية يوسيفوس فلافيوس . فقد جرى خلق الأسطورة بواسطة عمليات حذف دؤوبة لحقائق أساسية، وإضافة وتزييف حقائق لم تكن قائمة في رواية يوسيفوس . لذلك، سيشكل توثيق وتحليل عمليات الحذف القسم الأكبر من هذا الكتاب .

تفسيرات جديدة قدمتها العلوم الاجتماعية

جرت محاولات قليلة لبلورة تفسيرات بشأن الرواية الأسطورية للمسّادا استنادا إلى مناهج العلوم الاجتماعية . ولكن، على عكس الحجم الضخم للأدبيات المعنية بالمسّادا في حقول أخرى، فإن عدد التفسيرات التي تعتمد خطابا قريبا من الخطاب المستخدم في العلوم الاجتماعية ليس كبيرا .

كان برنارد لويس أحد أوائل الباحثين الذين اتخذوا موقفا صارما من رواية المسّادا (١٩٧٥) . لا شك أن لويس ينتمي إلى المنظور الاستدلالي الاجتماعي في تفسير الذاكرة الجمعية، فهو يؤكد أن الرواية الحديثة للمسّادا تشكل إحدى الحالات في ما يدعوه «التاريخ المختلق» .

وقد قدّمت لنا شارغل (١٩٧٩) ما يمكن اعتباره أوّل محاولة تفصيلية لفهم الرواية الأسطورية للمسّادا في خطاب العلوم الاجتماعية . تعلن شارغل أن الرواية الأسطورية للمسّادا أسطورة سياسية تقوم على حدث تاريخي محدد، ثم تستخدم التحليل الوظيفي ـ حسب كتابات دوركهايم ومالينوفسكي ـ للقول أن أسطورة المسّادا لعبت دورا حاسما في المجتمع الإسرائيلي، كوسيلة لتحقيق الشرعية الاجتماعية والدمج في المقام الأوّل .

ويبدو أن تفسير شارغل قد صمد، من حيث الجوهر، أمام اختبار الزمن . فحقيقة أن الرواية الأسطورية للمسّادا قد استُخدمت لخلق التماسك والدمج الاجتماعيين، أو من أجل دفع الناس «لعمل أشياء بصورة جمعية» ـ حسب تعبير بيكر (١٩٨٦) ـ تبدو أشد وضوحا اليوم أكثر من أي وقت مضى .

قارنت أطروحة ياعيل زربافل (١٩٨٠) بين روايتين إسرائيليتين عن البطولة، المسّادا وتل حي . ورغم أنها لا تتقيد بخطاب علم الاجتماع تماما، إلا أنها أنجزت عملا يثير الاعجاب إلى حد كبير . فهي تشمل تحليلا مقارنا لأساطير البطولة في المجتمع اليهودي الإسرائيلي : كيف

STUDENTS-HUB.com

نشأت، كيف تم التعاطي معها، وما تنطوي عليه من معنى، وذلك من منظور الدراسات الفولكلورية.

يطرح برونر وغورفين (١٩٨٤) أطروحة تشبه ما طرحته شارغل، إذ يقولان أن أسطورة المسّادا أسهمت في تشجيع الاندماج، مثلت غلافا خارجيا للأيديولوجيا، كما اسهمت في خلق الانضباط الاجتماعي. ومع ذلك، ينصب اهتمامهما على نظرية السرد الحواري، وعلى هذا الأساس يُطبقّان المنظور المقارن للتساؤل حول صدقية يوسيفوس فلافيوس (صفحات ٦٤- ٦٥).

يدرس كل من شوارتز، وزيربافل، وبارنيت (١٩٨٦) كيف تم إحياء المسّادا بعد سنوات من «النسيان»، ويفعلون ذلك من منظور الذاكرة الجمعية. تولي الدراسة في هذا السياق أهمية فائقة لقصيدة لمدان (تشبه إلى حد كبير من حيث الجوهر فكرة لويس ١٩٧٥).

أما دان بيتان، خريّج الجامعة العبرية، فقد انكب لسنوات على دراسة مختلف أساطير البطولة، بما فيها المسّادا، التي تمت بلورتها في اليشوف (المجتمع اليهودي في فلسطين) وفي المجتمع اليهودي الإسرائيلي، في الأغلب على يد الحركة الصهيونية العلمانية. يضع بيتان بحث الصهيونية عن رموز البطولة في إطار الهوية اليهودية غير الدينية الجديدة في اليشوف وإسرائيل ـ في إطار «العقلية الصهيونية» حسب تعبيره.

يواصل باين (١٩٩١ ـ ١٩٩٤) الذي يقف بين الدراسات التاريخية، ودراسات الذاكرة ومنظور الذاكرة الجمعية، الفكرة التي بدأت مع برونر وغورفن (١٩٨٤) فيقترح وجود مسّادتين: مسّادة العام ٧٣ بعد الميلاد، ومسّادة القرن العشرين. ويقول أن الروايتين على قدر كبير من الاختلاف.

وقد حاجج المؤرخ الفرنسي بيير فيدال ـ ناكيه ـ بقدر كبير من الاقناع ـ أن الرواية الأسطورية للمسّادا، كما «يعرفها» الإسرائيليون وغيرهم ليست سوى مجرّد أسطورة وتلفيق (١٩٨٣، ١٩٩١). بهذا المعنى، يشترك ناكيه في الرأي مع لويس (١٩٧٥) ومن الواضح أنه ينتمي إلى مدرسة المنظور الاجتماعي الاستدلالي للذاكرة الجمعية. من ناحية أخرى، يشكك ناكيه في صدقية الأقوال المنسوبة إلى اليعازر بن يائير، ويشير إلى وجود احتمال قوي بتلفيق تلك الأقوال، أيضا.

أخيرا، يركز كتاب أنيتا شابيرا الصادر عام ١٩٩٢ على ما دار من سجالات في أوساط الصهيونية العلمانية حول البحث عن شرعية لتسويغ استخدام العنف. تناقش شابيرا في هذا الكتاب المدهش المسّادا في قسمين مطوّلين. توجز في احدهما التعامل مع المسّادا في أوساط بعض الحركات الشبابية (الصفحات ٤٢٦ ـ ٤٣٣) هذا الوصف جزء من قسم أطول حول ما تدعوه «المسّادا كأسطورة بطولية» (الصفحات ٤٢١ ـ ٤٣٣) ومن الفرضيات الأساسية التي تطرحها شابيرا القول أن استعانة الصهيونية العلمانية بقصة المسّادا وتوظيفها كان المقصود منه إضفاء الشرعية على استخدام العنف.

STUDENTS-HUB.com

المنهج ـ إنتقاء الأسطورة

يمكن للإنسان عند معالجة سوسيولوجيا الأساطير إما التركيز على عدد منها، ربما استنادا إلى تلك العبارة السحرية (والأسطورية أيضا) أي «الدراسة المقارنة للثقافات» أو الحفر في أعماق أسطورة بعينها في ثقافة محددة. يبدو الأسلوب الثاني أكثر قوة. علاوة على ذلك، ربما كان من الأجدى التركيز على أسطورة مركزية بدلا من الاهتمام بأسطورة محدودة الانتشار. ففي هذه الحالة يزداد فهمنا لكيفية خلق الأساطير، وكذلك دورها الاجتماعي.

تركز هذه الدراسة في الواقع على أسطورة مركزية في ثقافة محددة: الثقافة اليهودية التي تطورت حتى عام ١٩٤٨ في فلسطين، وتواصلت في دولة إسرائيل بعد ١٩٤٨. لا تقتصر الرواية الأسطورية للمسّادا على إسرائيل، فقد شاعت في أوساط الفئات العليا المتعلمة من الطبقة الوسطى في العالم الغربي (وغيره أيضا).

توثيق الأسطورة

كيف نعرف ما يكوّن الرواية الأسطورية للمسّادا ؟

يحتاج الإنسان في هذا السياق إلى طرح سؤالين على الأقل. الأول «ما هي القصة التي يعرفها معظم الإسرائيليين عن المسّادا ؟» والسؤال الثاني «كيف نتحقق من معرفة ما يعرفونه ؟». إن الإجابة عن هذين السؤالين ليست بالأمر السهل.

أقصر الطرق للعثور على إجابات هي سؤال الإسرائيليين عما يعرفونه، وعن كيفية توصلهم إلى تلك المعرفة. يحتاج الإنسان، حسب الطريقة المنهجية السائدة، إلى أخذ عينة تمثيلية من السكان وطرح أسئلة عليها. تثير هذه الطريقة نوعا من الارتياب لكونها تشبه «المسح» فمعظم البيروقراطية الإسرائيلية التي تحتل مواقع متنفذة في مختلف المؤسسات البحثية (الذين أعرفهم على الأقل) لا توافق على ما ترى فيه نوعا من «المسح».

ورغم ذلك، ثمة مشكلة أكثر جدية، فحتى مع وجود موافقة على مسح من هذا النوع، فإن المسح يعطينا معلومات تقتصر صلاحيتها على الفترة التي أجري فيها فقط. ولو حاولنا تجاوز هذه المشكلة باستخدام طرق تعطينا معلومات أكثر ديمومة سنحصل على معلومات إشكالية، أيضا. من ناحية أخرى، لا يمكن تطبيق المسح، من ناحية عملية، على جزء كبير وهام من السكان (أو عينات تمثيلية عنهم) الذين عاشوا في العشرينات والثلاثينات والأربعينات. لذلك، أهملت في فترة مبكرة من البحث فكرة استخدام «المسح».

ورغم ذلك، لا يخبو حب الاستطلاع بسرعة. فرغم معرفتي بالمصاعب والمحدودية، لم أتوقف عن طرح أسئلة على الناس. حاولت استغلال كل فرصة متاحة في لقاءات مع أعداد كبيرة من الناس لسؤالهم عما يعرفونه عن المسّادا، وكيف توصلوا إلى تلك المعرفة. وقد كنت وافر الحظ (في هذا الجانب على الأقل) لأنني قمت بتدريس مساقات «مقدمة لعلم الاجتماع» في قسم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع في الجامعة العبرية لمدة أربع سنوات، كما قمت

STUDENTS-HUB.com

بتدريس سوسيولوجيا الانحراف وسوء استخدام المخدرات لبعض الصفوف الكبيرة.

حضر المساقات الثلاثة مجتمعة حولي ٥٥٠ طالبا في العام، وقد سألت الطلاب، على مدار أربعة أعوام، عما يعرفونه عن المسّادا. كانت «معرفتهم» مختلفة تمام الاختلاف عن «معرفتي». شرعت، أيضا، في الاستفادة من اللقاءات الاجتماعية مع الأصدقاء لطرح الأسئلة نفسها. وقد حدث في بعض الأحيان أنني قمت بطرح تلك الأسئلة على أصدقاء في الولايات المتحدة وكندا، خلال زيارات للبلدين. لذلك، وجدت نفسي في السنوات الأربع أو الخمس الماضية قد سألت آلاف الأشخاص عن المسّادا ـ شباب وكهول، متعلمون تعليما جيدا وغير متعلمين، في إسرائيل والخارج ـ أصبحت في نظر الكثيرين «السيد مسّادا»، لكن الخلاصة التي خرجت بها كانت واضحة: القصة التي يعرفونها قصة نمطية تماما، وربما حاول القارئ ممارسة هذا التمرين بنفسه.

ومع ذلك، رغم ما ثيره من اهتمام وسحر (وما تسفر عنه من نتائج مفيدة وصحيحة) فإن طريقة طرح أسئلة على عينات تمثيلية تتسم بالمحدودية الشديدة. فهي طريقة انطباعية، تعتمد على الحكاية، وعلى عينات غير تمثيلية، وتتسم بالتحيز. ولكنها كانت مفيدة باعتبارها نقطة البداية، وكمصدر لمعلومات محدودة. مهما يكن الأمر، إن الضعف الذي تعاني منه هذه الطريقة قد يدفع أقل المهتمين بالمنهجية إلى الجنون. ومن حسن الحظ أن ثمة طريقة أخرى مشتقة، من المنهج الاستدلالي المعتمد على القرائن، لمعالجة هذه المشكلة، ورغم أنها لا تخلو من المشاكل، إلا أنها أفضل من الطريقة السابقة.

يكمن مفتاح الطريقة البديلة في النظر إلى الرواية الأسطورية للمسّادا كتحريف لرواية يوسيفوس أولا، وفي السؤال الذي يفضل طرحه في الوقت نفسه عما يعرفه الإسرائيليون عن المسّادا وكيف حصلوا على تلك المعرفة ثانيا. فهذه الأسئلة تتصل بكيفية تطوّر ما يبدو لنا كأسطورة.

إن العثور على طريقة مناسبة للإجابة عن تلك الأسئلة مسألة أسهل. فهي تتمثل، قبل كل شئ، في التساؤل كيف حصل الإسرائيليون وغيرهم ـ وأنا من بينهم ـ على «معرفتهم» عن المسّادا. المسّادا وتاريخ الثورة اليهودية الكبرى جزء من نصوص كتب التاريخ في المدارس الثانوية الإسرائيلية، كما يقوم الجيش الإسرائيلي بتنظيم زيارات للجنود إلى المسّادا، ، وتقوم المنظمات الشبابية بتنظيم زيارات الشباب إلى المسّادا، أيضا. علاوة على ذلك، استُخدمت المسّادا بصورة متكررة في أجهزة الإعلام، خلال فترات مختلفة، كرمز قومي من رموز البطولة، وكرمز «للقتال حتى النفس الأخير».

إذا فهمنا هذا الأمر تصبح الخطوة التالية واضحة للعيان، فهي تشمل حصر هيئات وقنوات الاختلاط الاجتماعي في إسرائيل، وفحص طريقة عرضها للمسّادا. من المفيد بدء البحث مع فترة زمنية صاحبت ما جرى اعتباره بعثا للحياة اليهودية الجديدة في البلاد. بدأت تلك الفترة في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر، واستمرت إلى عهد ما يدعوه المؤرخون

STUDENTS-HUB.com

الموجة الأولى للهجرة اليهودية إلى فلسطين (١٨٨٢ ـ ١٩٠٣) . تمنحنا هذه الطريقة فترة زمنية طويلة في الواقع ، وكذلك الأمل بتقديم إجابة عن سؤال : ماذا وكيف .

هكذا ، لا تكمن الطريقة المناسبة في هذه الحالة في القيام بعملية مسح ، بل في إلقاء نظرة تاريخية على طريقة بناء الرواية الأسطورية للمسّادا بالمعنى الاجتماعي ، كيف جرت صياغتها ، متى ، وأين .

وقد وضعت ، لتوثيق الأسطورة بالمعنى التاريخي ، خارطة لمختلف أشكال الاختلاط الاجتماعي ذات الصلة بالمسّادا . فسّرت الاختلاط بالمعنى الواسع للكلمة لتشمل الأشكال المحتملة لتبادل المعلومات . وانتهيت إلى فحص معمّق لعدد من الجوانب . تتجلى هذه الاستراتيجية في القسم الثاني من الكتاب ، عند التعاطي مع زمن وكيفية خلق الأسطورة على يد شماريا غوتمن (ثمة وصف لتنقيبات ييغال يادين في المسّادا في الفصل الثالث) . وعالجت ، بعد هذا الأمر ، طريقة تقديم المسّادا في الحركات الشبابية ، في المنظمات السريّة قبل قيام الدولة ، في الجيش الإسرائيلي ، في الكتب المدرسية ، وفي وسائل الإعلام والسياحة .

فحصت ، على سبيل المثال ، النصوص المدرسية منذ مطلع القرن حتى عام ١٩٩١ ، وقت نهاية البحث . وتمكنت بهذه الطريقة من تكوين صورة للأسطورة ، دقيقة وذات قدر كبير جدا من المصداقية . حللت النصوص (الكتب المدرسية أو التغطية المطبوعة في وسائل الإعلام عن المسّادا) بقدر ما تيسر الحصول عليها ، وفي حالة ندرة النصوص ، أو غموضها (كما هو الشأن في الفن ، وفي الجيش الإسرائيلي) أجريت مقابلات . وقد جرى استخدام الطريقتين معا أكثر من مرّة (عند التركيز على الحركات الشبابية ، مثلا) . كذلك ، لم يكن إجراء المقابلات صعبا ، ولم يرفض أحد من المعنيين .

أصبح لدينا ، بهذه الطريقة ، نظرة حقيقية عميقة حول طريقة عرض المسّادا على مدار نصف قرن من الزمن ، وجرى البحث بقدر كبير من الدقة والحرص على التفاصيل ، كما سنرى لاحقا ، إلى جانب المقارنة الدائمة بين الأسطورة والرواية الأصلية ليوسيفوس .

وبما أن اللعب بالكلمات ، والتعبيرات اللغوية ، وكذلك تعاقب الأحداث ، كانت عناصر أساسية في بناء الأسطورة ، حرصت على استخدام أكبر قدر ممكن من المقتطفات ، للحفاظ على التجربة المباشرة ، والمذاق المدهش للأسطورة ، والبيئة التي نبتت فيها (في الفصل السابع بشكل خاص) . ومن سوء الحظ أن معظم تلك التعبيرات باللغة العبرية ، وآمل أن تحافظ ترجمتي لها على المذاق الأصلي .

استخدمت طريقة أخرى هي السفر إلى المسّادا ، والانضمام إلى جماعات سياحية مختلفة ، والإصغاء إلى شرح المرشد السياحي ، وطريقته في تفسير المسّادا للسائحين في المكان . وكان من عادتي استئذان المرشد السياحي للوقوف جانبا والاستماع لما يقول ، ولم يُرفض لي طلب في هذا الشأن . كما حاولت التحدث مع المرشدين السياحيين ، وكانت طريقتهم في تقديم الرواية الأسطورية للمسّادا لمستمعيهم مثيرة للدهشة ، والأكثر إثارة للفتنة فيها فك لغز

STUDENTS-HUB.com

الانتحار .

النتائج

كانت نتيجة استخدام الطرق المنهجية السابقة مزدوجة . أولا ، حصلنا على إجابة شديدة الوضوح عن ماهية الرواية الأسطورية عن المسّادا (وكيف انحرفت عن رواية يوسيفوس الأصلية) . ثانيا ، توفرت لدينا إجابة شديدة الوضوح عن كيفية اختلاق الرواية الأسطورية ، بالحد الأقصى من التفاصيل . ولم يتم التوصل إلى هاتين النتيجتين ، بقدر ما أعلم ، في أبحاث أخرى تتعلق بموضوعات مشابهة . وبالتالي ، عندما انتهى جمع المعطيات ، جرى حل اللغز المذكور في البداية .

مفهمة الإطار التحليلي

يتطلب حل لغز الرواية الأسطورية للمسّادا إطارا تحليليا سليما . ورغم أن المناقشة التحليلية المعمقة توجد في القسم الثالث من الكتاب ، ينبغي أن نضع ، هنا ، الأساس المفهومي للتوجه النظري ، ليتسنى فهم وتفسير ما تبقى من الكتاب استنادا إلى هذه الصياغة المفهومية .

ينقسم هذا الإطار النظري إلى فئتين عريضتين . الأولى هي المفاهيم النظرية العامة التي صدر عنها هذا الكتاب . تعتمد هذه الفئة على المنهج الاستدلالي المبني على القرائن ، ومنظور التاريخ الطبيعي . والفئة الثانية تنقسم إلى سؤالين . أولهما ، لماذا وكيف نفسّر اختلاق الرواية الأسطورية للمسّادا ؟ ستعتمد الإجابة ، في المقام الأوّل ، على مفاهيم جرت بلورتها في دراسات الذاكرة الجمعية . وثانيهما ، كيف اختلقت الرواية الأسطورية للمسّادا ، بالضبط ؟ ستعتمد الإجابة ، هنا ، على النموذج الذي وضعه آلبورت وبوتسمان (١٩٤٥ , ١٩٤٧) حول التهيئة ، والشحذ ، والدمج .

تأطير نظري عام

وقع في السنوات الأخيرة تمييز نظري في سياق مجالات مختلفة للبحث السوسيولوجي ـ بما فيها علم اجتماع المشاكل الاجتماعية ، والانحراف ـ بين ما يدعى بالنظرة ء الموضوعية » و ء الاستدلالية» . النظرة الموضوعية مشتقة من المقاربة الوضعية ، وهي في الواقع قريبة من المذهب العملي . فهي تفترض أن ءالانحراف » (وبصورة أعم ء القضايا والمشاكل الاجتماعية ») تشكل واقعا ء موضوعيا ويصلح للقياس ، خاصة بحكم تكوّنها من شروط موضوعية وأذى [يلحق بالغير] بينما تفترض النظرة ء الاستدلالية » (يُشار إليها أيضا ءبالذاتية » أو ء النسبية » أن الانحراف لا يمثل سمات ما يدعى بالواقع الاجتماعي ، وأنه نتيجة لعملية تصنيف اجتماعية مشتركة لما يراه بعض الأعضاء المنخرطين في ثقافة ما كمسألة إشكالية ، مؤذية ، أو تشكل خطرا على الآخرين .

لذلك ، فإن ما يُصنف أو لا يُصنف كواقع (الانحراف أو المشاكل والقضايا الاجتماعية في

STUDENTS-HUB.com

هذه الحالة) ليس نتيجة لظروف موضوعية . وكما يقول غودي : ءبالنسبة لمعتنق النظرة الذاتية ، لا يحتاج ظرف معين حتى ليكون حاضرا بالمعنى الموضوعي لتجري تسميته مشكلة إجتماعية » .

تصل هذه القضايا الخلافية إلى ما هو أبعد من هذا السجال بطبيعة الحال . والمسألة ، هنا ، هي حول ما نراه فعلا كسمة للواقع . أي هل يوجد الواقع الحقيقي والموضوعي ء هناك » (على طريقة كهف أفلاطون الشهير) أم أن ما نراه ليس سوى صور للواقع ، وبالتالي نتعامل مع تلك الصور المراوغة المتغيرة ؟

تتسم هذه المشكلة بالحدة عمليا لدى المدرسة الاستدلالية . وكما سنرى لاحقا فإن المدرسة الاستدلالية تطرح حلا لهذه المشكلة .

يشير بيست (١٩٨٩) وغودي (١٩٨٩) إلى وجود نوعين من المنظور الاستدلالي . أولا ، ثمة استدلالية صارمة . وثانيا ، ثمة استدلالية تقوم على القرائن ، وكما يلاحظ غودي (١٩٨٩ ، ٣٢٨ـ٣٢٩) يجادل أصحاب المنظور الأوّل أن تقييم المختص أو العالم للانحراف لا يشكل بهذا المعنى سوى نشاط ءلطرح فرضية ما » ضمن أنشطة أخرى مشابهة ، كما أن المواقف العلمية هي أيضا صياغات اجتماعية ، شأنها شأن المواقف الاجتماعية الأخرى ، ويمكن بحثها على هذا الأساس .

ويجادل أصحاب المنظور الثاني بالقول : رغم أن الانحراف والمشاكل الاجتماعية نتائج لأنشطة ءطرح الفرضيات » فإن ما يدعى بالبعد ءالموضوعي » يقبل التحديد والتقييم من جانب المختص على أساس بعض الدلائل العلمية . وغالبا ما ينحو علماء الاجتماع العاملون ضمن هذا المنظور النظري إلى إظهار التعارض بين الصيغتين ء الموضوعية » و ءالاستدلالية » للواقع . وتقدم الاستدلالية القائمة على القرائن حلا لهذه المشكلة من خلال التركيز على طبيعة الواقع ، فهي تعيّن محددات الواقع لتمنح الباحث بهذه الطريقة ركيزة تحليلية قوية .

النظرة المعتمدة في هذا الكتاب هي الطريقة الاستدلالية القائمة على القرائن . وبالتالي ، سأستخدم رواية يوسيفوس ـ مثلما جرى تناول مسببات الذعر الاجتماعي من قبل (على سبيل المثال ، بن يهودا ١٩٨٦ ، وغودي ١٩٨٩ ، وغودي وبن يهودا ١٩٩٤) باعتبارها الرواية ءالموضوعية » . وفي ما يتصل بهذا الغرض ، فإن صدقية ونـزاهة يوسيفوس فلافيوس مسألة جانبية . فهو نقطة الانطلاق التي اعتمدها ، والرواية التي أقيس عليها الرواية الأسطورية للمسّادا . لا شك أن الرواية الأسطورية للمسّادا تبدو بعد المقارنة نوعا من التحريف الكبير لرواية يوسيفوس . فهي تقوم على حذف حقائق أساسية ، وعلى تزييف حقائق أخرى . لذلك ، سنفحص بالتفصيل كيف وأين ومتى أجريت عملية التحريف . وهذه الاستراتيجية مستمدة بالكامل من الطريقة الاستدلالية القائمة على القرائن .

والواقع أن بنية هذا الكتاب تقوم على وتعكس الطريقة الاستدلالية القائمة على القرائن . يطرح الفصل الأوّل الحقائق ، ويفصّل الفصل الثاني الصياغة الاجتماعية للحقائق ، أما القسم

STUDENTS-HUB.com

الثالث فيكون مناقشة للتعارض بينهما. كما أوّجه عناية منهجية وتحليلية إلى ما أصبح يعرف بالتاريخ الطبيعي». تشبه هذه المقاربة ما أسماه دافيد ماتساء الموقف التقييمي» (١٩٦٩)، حيث يتطلب هذا الموقف حساسية خاصة من جانب الباحث، أي الحرص على السياق الطبيعي وتسلسل الأحداث كما جرت، وكذلك على القيم والمواقف المختلفة للأطراف الفاعلة، بما فيها أصحاب المقاولات الأخلاقية.

لسنا في حاجة للموافقة على ما نرى، لكننا نحتاج لإعادة خلق (أو بناء) العالم الاجتماعي بالطريقة التي عاشته بها مختلف الأطراف، حسب التسلسل الطبيعي للأحداث. ورغم أن هذا المنهج الاستدلالي القائم على القرائن يحد من استخدام عنصر التقييم» إلا أنه لا يحول دون استخدامه. يعني التاريخ الطبيعي» من ناحية أخرى أن علينا دراسة الظاهرة الاجتماعية منذ ظهورها حتى وصولها إلى مرحلة الذروة، وصولا إلى مرحلة الأفول. ومن الواضح أننا نستطيع القيام بهذا العمل طالما كان تسلسل أحداث الظاهرة الاجتماعية منسجما مع هذا الترتيب. فالتركيز على التسلسل ينسجم تمام الانسجام مع المنهج الاستدلالي القائم على القرائن.

وبما أن الرواية الأسطورية للمسّادا لا تعتمد على نص وحسب، بل وعلى زيارة المكان، يجب علينا دراسة هذا الجانب، أيضا: مَن زار المسّادا، متى، وكيف.

دور الذاكرة الجمعية

لا شك أن الإطار النظري المناسب، الذي تم الاعتماد عليه في صياغة مفاهيم هذه الدراسة، يوجد ضمن الاهتمامات النظرية المركزية لأبحاث الذاكرة الجمعية. وقد جرى تطوير طريقتين في هذا الصدد. تنطلق إحداهما من المنهج الاستدلالي الاجتماعي، وتفيد أن الماضي هو ما جرت صياغته اجتماعيا في الحاضر، بما ينسجم مع حاجات ومتطلبات الحاضر نفسه. الذاكرة الجمعية، حسب هذه الطريقة، اختراع من اختراعات الحاضر، فثمة حالة انقطاع واضحة وقوية بين الماضي والحاضر. تتحدى هذه الطريقة القول بوجود الماضي الموضوعي». أما الطريقة الثانية ففي حالة تعارض مع الأولى، إذ تنص على وجود استمرارية بين الماضي والحاضر، وتفيد أن الماضي يسهم في تشكيل فهمنا للحاضر. لذلك، تقول هذه الطريقة بوجود الماضي الموضوعي».

جابهت الطريقتان بعضهما خلال فترة طويلة، مع ميل الكفة لصالح الأولى. استعرض باري شوارتز في كتابه عام ١٩٩١ هاتين الطريقتين مشيرا إلى إمكانية التعامل معهما كحالتين خاصتين لعملية تعميم أوسع تحيل التغير والاستمرارية في مفهوم الماضي إلى تجارب إنسانية مباشرة» (ص ٢٣٤). وعلى هذا الأساس، إدعى عدم وجود تعارض بينهما، إذ يستطيع الإنسان دمجهما في عملية تفسير متماسكة تركّز على عنصري القطيعة والاستمرارية. كان ضمن أهدافي في هذه الدراسة فحص فرضية شوارتز بصورة مباشرة، صريحة، وتفصيلية.

STUDENTS-HUB.com

وقد تمت البرهنة على الفرضية بصورة كاملة، كما سنرى في الفصل ١٣ . لذلك، يسهم هذا البحث في حل مسألة نظرية أساسية في حقل الذاكرة الجمعية بالبرهنة على صواب فرضية شوارتز .

مارست الرواية الأسطورية للمسّادا التأثير على ملايين الإسرائيليين، بما فيهم شخصيات معروفة في النخبتين العسكرية والسياسية، حيث أسهمت في بلورة الهوية على الصعيد الفردي والقومي . علاوة على ذلك، ساعدت الرواية على بلورة صلة روحية قوية مع يهود اعتبرهم الإسرائيليون محاربين شجعان قبل ألفي عام تقريبا، وهذا بدوره منحهم الإحساس بالاستمرارية مع الماضي البعيد، ومع الأعمال السامية للبطولة . منحتهم المسّادا نموذجا قويا ومهيبا للتماهي معه، كما أن التماهي مع المسّادا يؤكد إدعاء اليهود بالشرعية في هذه الأرض، ردا على أقوال بعض المتشددين الفلسطينيين والإسلاميين أن اليهود زرع أجنبي لا ينتمي إلى الشرق الأوسط .

لذلك، لا يقتصر الأمر على بطولة في مجابهة تصفية محتملة، أو عبودية مذلة، لكنها حادثة تاريخية هامة تضع اليهود في الشرق الأوسط منذ ألفي عام تقريبا، في دور المحاربين الأشداء الشجعان دفاعا عن وطنهم . وقد كانت هذه العملية لبناء الهوية في الأربعينات، كما سنرى لاحقا، ذات أهمية حاسمة، وواصلت أهميتها حتى أواخر الستينات، ثم دخلت في طور الانحدار .

التعهدات الأخلاقية والهوّية

يساعدنا منظور الهوّية الجمعية على فهم كيفية تبلور الرواية الأسطورية للمسّادا وعملية قبولها . علاوة على استخدامنا لهذا المنظور والعمل على إغنائه، سنعمل على استكماله بمناقشة تحليلية لجانبين : أحدهما المشروع الأخلاقي المستخدم كأساس لخلق الرواية الأسطورية للمسّادا، والثاني تبلور هوّيات شخصية وقومية محددة نتيجة للقبول بدلالات الرواية الأسطورية للمسّادا .

التصوّر المنهجي

كُرّس معظم البحث، كما أسلفت القول، للمقارنة بين الأشكال المختلفة لتقديم المسّادا، وبين ما أخبرنا به يوسيفوس فلافيوس . من الطرق السهلة للقياس القيام بعملية مضاهاة حرفية لبعض النقاط الأساسية، ومقارنة الصيغ المتوفرة مع الصيغة الأصلية . ويمكن بهذه المقارنة معرفة مدى التزام النسخة المتداولة بالأصل . لكن المسألة البحثية، هنا، هي التساؤل حول الإطار النظري الواجب استخدامه لتفسير كيفية اختلاق الرواية الأسطورية للمسّادا ـ السؤال ليس لماذا اختلقت، بل كيف .

حاولت دراسات قليلة في حقل العلوم الاجتماعية الإجابة عن أسئلة مشابهة : هناك بحث بيركوفيتش (١٩٧١) الذي استهدف معرفة مدى دقة الكتب المختلفة للنصوص المدرسية في

STUDENTS-HUB.com

نقل تجربة محددة. وقد كانت النتيجة أن الدقة لم تكن جيدة تماما. اعتمد بحث بيركوفيتش لتفسير المعطيات المتوفرة على دراسة كلاسيكية في العلوم الاجتماعية هي دراسة ألبورت وبوستمان (١٩٤٥-١٩٤٧) حول الإشاعات. ففي خطة البحث الأصلية عرض ألبورت وبوتسمان على شخص معين صورة أو شريحة مصوّرة وطلبا منه إخبار شخص آخر عن مضمون الصورة. وقد طُلب من الشخص الثاني، الذي لم يتلق المعلومات الأصلية بصورة مباشرة، نقل الوصف إلى شخص ثالث، وهكذا دواليك. فنقل المعلومات بهذه الطريقة يشبه من ناحية مفهومية طريقة انتشار الشائعات.

شعرت، على غرار بيركوفيتش، أن عمل ألبورت وبوتسمان شديد الصلة بموضوعي. فالجوانب الهامة تتعلق بالنموذج الذي اقترحاه لتفسير طريقة بث المعلومات من شخص إلى آخر. كان ما اكتشفاه، من ناحية جوهرية، أن الرسائل الطويلة والمعقدة تُختزل إلى رسائل بسيطة ومختصرة، وأن مضمون الرسائل يتغيّر. وقد توصلا إلى تعريف ثلاث عمليات أساسية تحدث في سياق بث المعلومات: التمهيد (أي اختزال كمية المعلومات وتبسيطها) الشحذ (بينما تختصر الرسالة وتُبسّط تصبح أشد وضوحا) الدمج، تشمل هذه العملية عمليات فرعية أخرى، تتعاطى مع غربلة المعلومات، وإضافة أشياء جديدة إلى الرسالة الأصلية، كي تبدو متماسكة ومنسجمة مع موضوع ما.

وكما سنرى في القسم الثالث، الفصل ١٢، أصبح نموذج ألبورت وبوتسمان ومفاهيم التمهيد والشحذ والدمج، من الأمور المركزية في تفسيري للعمليات المُستخدمة في خلق الرواية الأسطورية للمسّادا من ناحية فعلية. فهذه المفاهيم تزوّدنا بأداة تحليلة قوية لفهم كيفية خلق الأسطورة.

الأشياء الجديدة في البحث

من الواضح أن المعطيات الأكاديمية والصحفية والشعبية حول بالمسّادا، وعلاقتها بيوسيفوس فلافيوس، أو علاقته بها، ضخمة الحجم. ومن الواضح، أيضا، قناعة العديد من الناس بخلق رواية أسطورية عن المسّادا. وربما كانت إشارة شافيت (١٩٩٢) ء أن النصوص المكتوبة في العقد الأخير، والتي تنتقد » عقدة المسّاداء أكبر حجما من النصوص المكتوبة عن بطولة المسّادا » صحيحة. ويصدق القول، أيضا، أن الرواية الأسطورية للمسّادا كما ءيعرفها » العديد منّا (وكما ءيعرفها » معظم مراجعي كتاب زيربافل (١٩٨٠) رواية مخادعة ومفبركة بمهارة تستهدف تحويل رواية تاريخية مأساوية وحزينة إلى قصة من قصص البطولة. وهذا القول ليس ء بالاكتشاف » الجديد.

لا توجد وجهات النظر الجديدة المطروحة في هذا البحث في دراسات أخرى، وهي نظرية وتجريبية في آن. فهذه الدراسة تنقل مسألة خلافية كبيرة إلى حقل الدراسة السوسيولوجية للذاكرة الجمعية، وتستخدم الرواية الأسطورية للمسّادا لتبيّن كيف يتسنى حل تلك المسألة.

STUDENTS-HUB.com

يدعم الحل المقترح، هنا، بقوة اقتراح باري شوارتز من أجل المزاوجة بين وجهتي نظر «الاستمرارية» و«الإنقطاع» في إطار تفسيري موّحد.

علاوة على ذلك، وسعت وجهة النظر المطروحة، هنا، الإطار التحليلي للذاكرة الجمعية لتجعل منه نقاشا للزمن والتاريخ. فهي توحي أن المسائل الخلافية ظهرت في الدراسة السوسيولوجية للذاكرة الجمعية بفعل طريقة تصوّرنا «للماضي». إن العمل برمته يعتمد المنهج الاستدلالي القائم على القرائن، ويقدم بطريقة الأبحاث المجراة في حقل «التاريخ الطبيعي».

يحلل هذا البحث بالتفصيل، على المستوى التجريبي، كيف جرى اختلاق الرواية الأسطورية للمسّادا في الواقع. ويتم إنجاز هذا الأمر بتحليل ما جرى من تحريف للرواية الأصلية ليوسيفوس في مختلف تفاصيلها. لم تجر عملية بحث دقيقة ودؤوبة بهذه الطريقة من قبل. فهي طريقة تضع الرواية الأسطورية للمسّادا تحت عدسة مجهر قوية. وعلى هذا النحو نعرف بالتفصيل ما تم الحفاظ عليه من رواية يوسيوفوس، وما تم إسقاطه منها، وما أُضيف إليها، بما يمكننا من تحديد متى وكيف اختلقت الأسطورة وجرى تداولها بالمعنى الثقافي. وهذا يعني، أيضا، أننا نستطيع معرفة المسؤولين عن اختلاق الرواية الأسطورية، وكذلك دوافعهم للقيام بهذا العمل. لم يقم أحد بتحليل تجريبي كهذا من قبل. وقد تمكنّا بفضل هذا التحليل الدقيق من معرفة أن الاقتراح التحليلي لشوارتز كان أفضل السبل لحل التناقض النظري في الدراسة السوسيولوجية للذاكرة الجمعية.

لم يجر التعامل مع البناء الاجتماعي للرواية الأسطورية للمسّادا باعتبارها رواية مكتوبة وحسب. إن تحذير آلتر (١٩٧٣) بضرورة الحيطة في التعامل مع رواية تاريخية مكتوبة كأساس لخلق الأسطورة، يعتبر صالحا بطريقة جزئية فقط. ففي بناء الرواية الأسطورية للمسّادا دخل عامل اجتماعي بالغ القوة والشدة، ولم يكن مجرّد مسألة أدبية. تمثل هذا العامل الاجتماعي في تجربة الرحلة الشعائرية وتسلّق المسّادا نفسها. وقد تضافر العاملان ـ الأدبي والخيالي المفتعل الذي أضيفت إليه بعض التوابل التاريخية الصحيحة، وعامل الحج الاجتماعي الشعائري إلى المسّادا ـ في خلق الرواية الأسطورية للمسّادا.

ولم يجر، بقدر ما أعلم، استخدام هذا النوع من المنهجية التجريبية، والمقاربة النظرية المحددة، بالطريقة المتبعة في هذا البحث، لدراسة أدبيات تتعلّق بالمسّادا، أو يوسيفوس فلافيوس، أو الثورة الكبرى في عام ٦٦ـ٧٣ بعد الميلاد.

STUDENTS-HUB.com